على هامش النقد

الأدب «المهموس» والأدب الصادق

للأستاذ سيد قطب

أرجو أن تكون هذه الكلمة هي الكلمة الأخيرة عن « الأدب المهموس » . وبرنامجها يتناول ثلاثة أغراض :

فأما الغرض الأول : فهو أن الأدب المصري لم يخل من صور من ذلك اللون المحبب إلى الأستاذ « مندور » ، وهي صور منوعة وأكثر سلامة من النماذج التي استهوته هناك . ولكن عجلته فيما يصدر من الأحكام ، وعدم انفساح الوقت أمامه ليدرس قبل أن يحكم ، وتشيعه الواضح المفهوم لشعراء المهجر . . . هذه الأسباب جميعها جملته ينادي بأن الشعر المصري متخلف قرونا عن شعر المهجر ، وأنه شعر خطابي لا يستهويه

وأما الغرض الثاني : فهو أن هذا اللون من الأدب ، ليس هو اللون الوحيد الذي يستحق الإعجاب ، وقد لا يكون أفضل الألوان ؛ فالتشيع له إلى أقصى الحدود ، وإنكار ما عداه من ألوان الأدب الأخرى ، مسألة « مزاج » خاص ، له دوافعه الخاصة ، وليس حكما أدبياً يرتكن إليه النقد الفني

وأما الغرض الثالث : فهو الحديث عن « النماذج البشرية » الحبيبة إلى الأستاذ مندور وعلاقتها في « مزاجه » بحكاية « الأدب المهموس » من بعض النواحي . وهو ما أرجو أن ينفسح له المجال في هذا المقال

* * *

ليس من الضروري أن يستتبع الهمسُ الأسى ، وليس من الضروري أن يكون الأسى متهالكا ليكون حبيباً إلى النفوس . ولكننا — مع هذا — نعرض للأستاذ مندور صورة من صور الشعر الهامس فيها الأسى وإن لم يكن فيها التهالك ، لشاعر مصري كبير تحت عنوان « السلو » .

أذن الشفاء . فما له لم يحمد ؟ ودنا الرجاء وما الرجاء بمسعدي
أعدوت أم شارفت غاية مقصدي ؟

برد الغليل اليوم وانطفأ الجوى وسلا الفؤاد فلا لقاء ولا نوى
وتبـــدد الشملان أي تبدد

قذفت بنا الأيام في غمراتهـــا ورمت بنا في التيه من فلواتها
فردين لم يتلاقيـــا في موعد

لا أنت أكرم من أحب ولا أنا سلواك دون الناس في هذي الدنى
تفدين حبي بالحيـــاة وأفتدي

ما كنت أحسب أن أبيت عشية أبدَ الزمان ولا أراك بحية
تحت الظلام ولا أضيق بمرقدي

يأتي الأصيل ولا نراقب وعده ويلي الظلام ولا نحاذر سهده
وإذا انقضى يوم فليس : إلى غد

وإذا رأيتك في الطريق فعابر يجتاز عابرة ، وطرف ناظر
يرنو لناظرة تروح وتغتـــدي !

عجباً لغابرنا وحاضر أمرنا ! أكذا تمرّ بنا معالم عمرنا
وتزول حتى لا دليل لمهتـــد ؟

هذي الشفاه فهل على بسماتها أثر يشف اليوم عن قبلاتها
في ذلك الماضي الذي لم يبعد ؟

هذي العيون فأين من نظراتها لمسات رحمتها ووحي حنانها
لم يبق من خبر ولا من مشهد !

عليهم بانتظام ، هذا إلى حضور أربعين حفلة تمثيلية بالمجان موزعة على الفصل التمثيلي السنوي . والعجيب في ألمانيا أن برلين نفسها كانت متخلفة في الحركة التمثيلية وراء جميع المدن الألمانية الكبرى فلم تكن تفرض هذا الذوق ال Metropolitan أو العاصمي الذي تفرضه العواصم الأخرى على المدن الأقل شأناً في المملكة ؛ فكان لمدينة كولونيا مسرحها الشعبي العتيد الذي كانت بلديتها تمنحه سنوياً مبلغ خمسة وعشرين ألفاً من الجنيهات ؛ وكذلك كان لمدينة تورن ، وهي من أصغر المدن الألمانية ، مسرحها الشعبي الذي كانت تمنحه بلديتها مبلغ ألف جنيه سنوياً ، وقد مثل مسرح كولونيا رواية المركة لجوالذورثي الإنجليزي فربح منها أضعاف ما ربح في انجلترا .

دريني خشبة

ذكرى تودد فى الحياة سقيمة   وتعيش فى كنف الهوان يتيمة
وتمر ذاهبة كأن لم توجد

ترى يستطيع الأستاذ مندور أن يحس بهذه القطعة وما يغشى جوها كله من أسى شفيف وهمس عميق ؟ ثم تراه حين تقلب الصفحة الأخرى على صورة هامسة ذات لون آخر ، يستطيع كذلك أن يحس بالصفحتين المتقابلتين ؟

إذن فليسمع هذه المقطوعة الأخرى لنفس الشاعر الكبير ! تحت عنوان « الكون جميل »

صفحة الجو على الزر   قاء كالخد الصقيل
لمعة الشمس كعين   لمحت نحو خليل
رجفة الزهر بجسم   هزه الشوق الدخيل
حيث يمت صروح   وعلى البعد نخيل
قل ولا تحفل بشىء   إنما الكون جميل

ونلمح هنا « ألفة » عميقة بين الشاعر وبين الطبيعة ، هى ألفة الحبيب العاشق المتفتح الحس والنفس ، المنهوم القلب والجوارح ؛ ونكاد نلمحه متسع الحدق مفغور الفم ، متوفز الإحساس ، وهو ينشق بل يلتهم ما فى الطبيعة الحبيبة من روح وجمال

قل ولا تحفل بشىء   إنما الكون جميل

قلها وأنت تستنشق ملء رئتيك ما فيه من روح وحلاوة ، ثم تستريح بنفس طويل ! . قلها فإنها لحظة تجلّ لروح ذلك الكون الجميل

وقصة ثالثة ذات لون ثالث ، لا هو بالأسى الشفيف ، ولا هو بالحس المنهوم ؛ ولكنها اللهفة الآسفة ، والحيرة الخاطفة فى « الحلم الضائع » لشاعر من شعراء الشباب المصريين :

أين حلمي وغرامى ونشيدى ؟   أين آمالىَ فى الأفق المديد ؟
أين دنيـاى التى جسّمتها   فى خيالى ، فتوارت من بعيد !

ومضة كالبرق مرت فى حياتى   أيقظت قلبى وحثت أمنياتى
وكما يخبو شعاع بارق   لم أجد حولىَ إلا الظلمات

أين عش كان فى نفسى دفيئاً   أين أفق كان فى قلبى وضيئاً
وحياة عشتها فى خاطرى   قبل أن تولد ، نشوان هنيئا ؟

أهو حلم أم ترى كان عيانا   عشنا النائم فى دفء هوانا
وسياحات لنا فى عالم   نحن أبدعناه فى الحلم فكانا ؟

أين يا أحلام واديك الجميل ؟   أين ظل عند واديك ظليل ؟
أين ؟ فالجدب يغشى عالمى   وخريف العمر والصمت الثقيل

أين أين ؟ كل ما قد كان فات   لم تعد فى النفس إلا الذكريات
وحنين فى الحنايا موغل   وظلام غارق فى الظلمات

ولدى من هذه الصور عشرات ، ولكن الفراغ محدود ، فبحسبى هذه الصور الثلاث من الشعر المصرى المتخلف قروناً ، لأنه ليس من عمل شعراء المهجر لسوء الحظ !

***

وبعد . فليس هذا اللون من الشعر — على تعدد صوره — باللون الوحيد الذى يعجب الناقد الفنى ذا الآفاق الوسيعة ، والنفس الرحيبة . وقد لا يكون أفضل الألوان حين يكون القياس هو صدق التعبير عن الحياة ، لا إرضاء الأمزجة الخاصة المتأثرة بعامل خاص

ومن الذى يقول : إن الهمس والوسوسة فى الطبيعة أصدق من الجأر والجهر ؟ إن بغام الظباء ليس أصل فى الحياة من زئير الآساد ؛ وإن خرير الجدول ليس أعمق فى النفس من هدير الشلالات ؛ وإن وسوسة النسيم ليست أوقع فى الحس من زمجرة العاصفة

والموسيقى ؛ ما شأنها فى هذا المجال ، (وهو خاطر جال فى نفس الموسيقى المصرى المبدع الأستاذ الشجاعى بهذه المناسبة) أنقضى مثلاً على موسيقى « واجنر » وكثير من سيمفونيات بتهوفن وسواه فى سبيل الهمس الذى تلجأ إليه الطبيعة مرة ، كما لجأت إلى مختلف النغمات والطبقات مرات !

كل مقاييس الفنون تنكر أن يكون الهمس أجل أو أصدق أو أعمق . وإن هو إلا « حالة » من حالات ، بل حالة لا تلجأ إليها الطبيعة والحياة إلا فى فترات الراحة من عناء الضجيج ! وليست الحياة كلها راحة إلا أن تكون حياة مزاج خاص يرى الدنيا من زاوية واحدة صغيرة !

ألا وإن الدنيا لحفية بالهامسين والجاهرين وإنهم لأبناؤها المخلصون فى جميع نغماتهم وطبقاتهم ما داموا صادقين . وإن هذه

الشـــعر الخطابى

للدكتور محمد مندور

يريد الأستاذ السيد قطب أن يجعل مما سميته الهمس فى الشعر نوعاً من الأدب يتميز بالإحساس الذى يغذيه فهو شعر الحنين أو « الحنية » كما يقول ، وهو يحذر القراء من آرائى لخضوعها لطبع خاص أقرب إلى المرض منه إلى الصحة ، ولكننى بحمد الله لست مريضاً ، ولا أذكر أننى مرضت يوماً ما ، وأنا على العكس سليم الجسم صلب البناء متمتع بكل قواى الجسمية والعقلية ، وشخصي بعد ليس موضع الحديث ، والهمس فى الشعر ليس « الحنية » ، ولا هو خاص بنوع من الإحساس ، وإنما هو مذهب فى الفن ، مذهب عام لا يتقيد بمادة

أما تحذير القراء من آرائى فهذا ما أدعو إليه أنا أيضاً لأننى أمقت مبدأ « السلطة » principe d'authorité ، وأعرف ما أصاب الإنسانية من أضراره المميتة خلال القرون الوسطى يوم كان الناس يؤمنون بآراء أرسطو لأنها صادرة عن المعلم الأول ، لا لما تقوم عليه من بينات . ونحن فى الشرق أحوج ما نكون إلى تحطيم هذا المبدأ الذى يشل عقول الناس فتستسلم لآراء هـذا أو ذاك ، والأمر فى المسائل الفنية أشد خطورة ، وذلك لأن الأذواق الفنية لم تتكون بعد لسبب واضح هو جهلنا بالآداب الأجنبية أو معرفتنا بها معرفة أضر من الجهل بها ، وليس من سبيل إطلاقا إلى الادعاء بأن أدبنا العربى يكفى لتكوين ذوق أدبى صحيح

وإذن فأنا لا أريد أن أملى ذوق على أحد ؛ وذلك لأن الذوق وإن يكن من أعمق ملكاتنا البشرية فى إدراك مواضع الجمال والقبح ، إلا أنه لا يمكن أن يصبح وسيلة مشروعة للمعرفة التى لدى الغير ، إلا إذا علل بأسباب عقلية وفنية ونفسية تستطيع أن توحى بمثل ما نحس به ، وإلا أصبح ما نقول ادعاء كاذباً إن لم يكن نصباً .

ولقد حاولت تمييز « الشعر المهموس » بمعارضته « بالشعر الخطابى » ، ولكننى فيما يظهر لا أزال محتاجاً إلى مزيد من الإيضاح . وها أنا اليوم أتناول قصيدة للأستاذ محمود حسن إسماعيل ، وجدتها مصادفة فى عدد ٧ يونية سنة ١٩٤٣ من « الرسالة » بعنوان « حصاد القمر »

النغمات والطبقات لكثيرة منوعة تنوعَ النفوس ، بل تنوعَ الحالات النفسية فى الإنسان الواحد . وإننا لنعجب بالمتنبي مثلاً حين يجهر بأعلى صوته :

أفكر فى معاقرة المنايا ... وقود الخيل مشرفة الهوادى
زعيم للقنا الخطى عزمى ... بسفك دم الحواضر والبوادى
إلى كم ذا التخلف والتوانى ... وكم هذا التمادى فى التمادى
وشغل النفس عن طلب المعالى ... ببيع الشعر فى سوق الكساد

كما نعجب به حين يهمس فى حنين :

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا ... لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

أو حين يهمس فى ألم مرير :

وحيد من الخلان فى كل بلدة ... إذا أعوز المطلوب قل المساعد

فهو هو المتنبي فى جهره وهمسه ، ذو الطابع الواضح ، والصدق الأصيل

وبهذه الرحابة يجب أن ننظر إلى أنماط الفنون ، وأنماط النفوس فى هذه الحياة التى تتسع للجميع ، وتحفل بالجميع ، ولا تتطلب منهم إلا التعبير الجميل عن الشعور الصادق ، وليكن فى هذه الحدود الرحيبة ما يكون

***

فأما النماذج البشرية ، التى يهفو إليها الأستاذ « مندور » وبعض زملائه فى هذه الأيام ، فيمهلنى القراء أسبوعاً آخر لإدارة الحديث عليها ، بعد أن استغرق المقال كل المجال !

(حلوان) سيد قطب

ملاحظة : كنت قد ذكرت — نقلا عن الأستاذ مندور — أن قصيدة « ترنيمة سرير وقصيدة « يا نفس » لشاعر واحد هو « نسيب عريضة » وقلت : إن بينهما فارقاً بعيداً فالأولى شعر يستحق الحب والاعجاب ، والثانية لا تبلغ أن تكون شعرا

وفى عدد الثقافة رقم ٢٣٠ كتب حضرة الفاضل « عزمى يوسف » يصحح ما ذكره الأستاذ مندور من نسبة « ترنيمة سرير » إلى نسيب عريضة ويقرر أنها للشاعر « إلياس فرحات » ، وأنا أرجح هذا ، للفارق البين بين روحى القصيدتين الذى أشرت إليه فى المقال السابق